(١٨) خطبة له ﷺ
يوم الفتح

لما تم فتح مكة سنة ثمان من الهجرة، وقف النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، على باب الكعبة، فقال:

« لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له ، صَدَقَ وَعْدَه ، ونَصَرَ عَبْدَه ، وهَزَمَ الأحزابَ وَحْدَه . ألاَ كُلُّ مأثرةٍ[١]، أو دَمٍ ، أو مالٍ يُدَّعى فهو تحتَ قدمىَّ هاتين إلا سِدَانةُ[٢] البَيتِ وسقايةَ الحَاجِ . ألاَ وقتيلُ الخَطأ شبهِ العَمْدِ بالسَّوط والعَصَا ، ففيه الدِّية مغلَّظة مائة مِنَ الإبل: أربعونَ منها فى بطونها أولادُها .

يا معشر قريش.. إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليَّةِ وتَعَظُّمَها[٣] بالآباءِ. النَّاسُ مِنْ آدمَ وآدمُ خُلِقَ مِنْ تُرابٍ » .

ثم تلا هذه الآية:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[٤] .

---

(١) أى : أمر يستأثر به .

(٢) السدانة : خدمة الكعبة .

(٣) النخوة - بفتح فسكون - الشرف والكبر والفخر بالآباء ، ولم يرد إبطال النسب بل إبطال التشرف به ، لأن الشرف الحقيقى لا يكون إلا بالتقوى . والتعظيم: التكبر .

(٤) سورة الحجرات : ١٣ .

ثم قال : « **يا معشرَ قريش.. ما ترونَ أنِّى فاعلٌ بكُمْ** » ؟ . قالوا : خيراً أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخٍ كريمٍ . قال: « **اذْهَبوا فأنتُم الطُّلَقاء** » .

(ذكرها ابن هشام)

فى هذه الخطبة الجامعة - كما قرأنا - يتضح لنا كيف كان النبى ﷺ موجِّهاً ومرشداً ، وكيف كان رحمة للعالمين ، فهو هنا صلوات الله عليه وسلامه - فى هذه الخطبة - وبعد أن أعلن ما أراد إعلانه بالنسبة لإبطاله بعض آثار الجاهلية : يقول لهؤلاء الذين طردوه من بلده ، والذين كانوا يظنون أنه سيفتك بهم فى هذا اليوم الذى دخل فيه مكة فاتحاً فى عشرة آلاف من جند الله : « **ما تَرونَ أنِّى فاعلٌ بكم** »؟ . فيقولون : « خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم » . فيكون جوابه ﷺ : « **اذهَبُوا فأنتُمُ الطُّلقاء** » . أى : الأحرار . . وزاد على ذلك كما فى رواية أخرى :

« **لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** »(١) .

فكانت النتيجة لهذا العفو المحمدى : أن دخل أكثرهم فى دين الله أفواجاً ، وإلى هذا قد يشير قول الله تعالى :

﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ③** ﴾(٢) .

---

(١) سورة يوسف : ٩٢ .

(٢) سورة النصر .

* وفى القرآن الكريم يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾(١) .

ويقول سبحانه : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾(٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٣)

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(٤) .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المقتدين برسول الله ﷺ فى عفوه وكرمه وحلمه . . آمين .

* * *

(١) سورة الأعراف : ١٩٩ .

(٢) سورة الحجر : ٨٥ .

(٣) سورة آل عمران : ١٣٤

(٤) سورة الشورى : ٤٣ .